الإبداع الصوفي المغربي في السيرة النبوية والشمائل المحمدية من خلال ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج لمحمد المعطى بن الصالح الشرقي ت1180م

حميد بن احماد أيت الحيان المراكشي
جامعة مراكش (المغرب)

الملخص:

إن من أهم مظاهر تعلق علماء الغرب الإسلامي بالجناب النبوي الشريف، وارتباطهم العظيم بالبقاع الطاهرة المقدسة، ما تحفظه المكتبة الإسلامية من أنواع المؤلفات المغربية التي تعنى بالسيرة النبوية والشمائل المحمدية.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعريف بمعالم الإبداع الصوفي المغربي في السيرة النبوية، من خلال أحد أعلام التصوف بالمغرب الأقصى -محمد المعطى بن الصالح الشرقي- والكشف عن موسوعته في السيرة التي ليس لها نظير في النظم ولا مثيل في الحجم، ومما زاد من فرادتها اعتماده الرسوم التوضيحية للأماكن المقدسة وبألوان زاهية.

ولأجل هذه الغاية، اعتمد الباحث في هذه الورقة العلمية على منهج وصفي تحليلي، تتبع من خلاله مظاهر

التجديد والإبداع عند المصنف، وأبرز فيه براعة التأريخ لأحداث السيرة النبوية في قالب من الصلوات والأدعية الصوفية. وأبان عن منهج تربوي فريد اعتمده متصوفة المغرب الأقصى في تقريب السيرة النبوية لأفهام العامة.

الكلمات المفتاحية: السيرة النبوية– الإبداع –التصوف –أدعية – المغرب الأقصى

The creative Moroccan Sufi in the prophet biography and the Moha, edan graces via "Dakhirat al mohtaj fi assalat aala sahib alliwa wa ttaj" by Mohamed Elmaiti Bessalih Eshargi 1180 B.C

Abstract:

This paper focuses to define the creative Moroccan contribution in the richness of the prophet biography through one of the pillars of Sufism in Morocco” Mohamed Elmaiti Bensalih Eshargi “who is both an educator and innovator. The aim is also to disclose his encyclopedic biography that has no equal in organization and size. Also, this work has an academic importance since it has used drawings to clarify the sacred places by using bright colors. For this reason the study has adopted an analytical method to study the aspects of innovations in this work which has displayed the ingenuity of dating the events of the prophet biography in a form of prayers and Sufi supplications. Actually; this paper has exposed the unique methodology used by Magreban Sufists to enclosure the prophets biography to the public .

Key words: Prophet biography ,creativity ,Sufism, prayers , Morocco

مقدمة:

بعث الله عز وجل للعالمين رسولا منهم، حريصا عليهم، "جاء بلسانهم وما يفهمونه، وشرفوا به غابر الأزمان"(1). ثم بين لهم أن الغاية من ذلك والحكمة منه التأسي والاتباع، يقول الله عز وجل: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾(2).

لذلك كان من أوجب الواجبات وأوكدها معرفة تفاصيل سيرته ﷺ ، حتى يتم الاقتداء به في جميع شؤون الحياة، حيث كانت سيرته تطبيقا عمليا لأحكام الإسلام وشريعته، فهذا "ما يحق على المرء المسلم حفظه، وتجب على ذي الدين معرفته، من نسب رسول الله ﷺ ومولده، ومنشئه ومبعثه، وذكر أحواله ومغازيه، ومعرفة أسماء ولده وعمومته وأزواجه، فإن للعارف بذلك رتبة تعلو على رتبة من جهله، كما أن للعلم به حلاوة في الصدر، ولم تعمر مجالس الخير بعد كتاب الله عز وجل بأحسن من أخبار رسول الله ﷺ"(3).

ولعل هذا ما يفسر العناية الفائقة بالسيرة النبوية، واهتمام كبار المحدثين من التابعين بالتأليف فيها، ونظمها وجمع شواردها، قبل أن يظهر التأليف في تاريخ الإسلام، لتكون السيرة النبوية نواته ومنطلقه، والتأليف في السيرة النبوية لم يكن منحصرا في المحدثين والمؤرخين فقط، بل أسهم فيه كذلك عدد من المفسرين والفقهاء واللغويين وغيرهم، وتعددت مناهجهم في ذلك بين مصنف وشارح، وموجز ومسهب.

ولم يكن الغرب الإسلامي بدعا في هذا المضمار، فبالرجوع إلى كتب الطبقات، ومراجع المؤلفين والمصنفات، وفهارس الخزانات، نجد أن أعلام المغاربة والأندلس كانوا حاضرين بمؤلفاتهم، منهم من ابتدأ الكتابة فيها، ومنهم من شرح ومنهم من قيد وذيل(4).

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 301/8.

(2) سورة الأحزاب: 21.

(3) أوجز السير لابن فارس، تحقيق وتقديم: هلال ناجي، مجلة المورد: المجلد 2 عدد 4، ص: 146.

(4) أبرز الدكتور والعلامة محمد يسف من خلال أطروحته لنيل الدكتوراه "المصنفات المغربية في السيرة النبوية" أن للمغاربة فضل كبير في هذا الميدان وأنهم خدموا السيرة توثيقا وشرحا وإسنادا واستنباطا واستصفاء... راجع مجلة دعوة الحق العدد 240 نونبر 1986م. و كتاب الشروح المغربية على كتاب الشمائل المحمدية للدكتور حسن حالي فهو يبرز اهتمام وعناية المغاربة قديما وحديثا بهذا الفن وقد جمع عددا من المصنفات في هذا الفن ص 10 فما فوقها.

وتعلق المغاربة بالجناب النبوي، هو من الشهرة مما لا يحتاج معه إلى استدلال، ويظهر ذلك فيما نقل عن أمرائهم وأعيانهم وعامتهم، وما جادت به قرائح أدباءهم، وما حوته مؤلفات فقهائهم وأعلامهم، فكان اهتمامهم بسيرته منقطع النظير، وولعهم بشمائله الطاهرة وخصاله الظاهرة مكين، فبادروا إلى جمعها وتصنيفها وتبويبها وترتيبها في كتب ذات مناهج شتى، وطرق تترى، فسارت أنموذجا ينسج على منواله، وقبسا يرجع إليه.

ومن شعائر الإسلام الكبرى، وحقوق المصطفى التي عرفها القاضي في الشفا[1]، وظيفة الصلاة والتسليم على الرسول المجتبى، وهي شعيرة نوه القرآن العزيز بشأنها، وأبرز الحديث الشريف مقامها. يقول القرطبي: " أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفا له، ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه"[2].

وأداء لحق الجناب النبوي الشريف، وقضاء لشكر أياديه، وتجاوبا مع تشريع هذه القربة في المناسبات، يذكر العلامة محمد المنوني أن الصلاة على النبي ﷺ صار لها طابع مغربي أقصوي خاص منذ أواسط المائة الثامنة، إذ بدأ المغاربة في تأليف مجموعات الصلوات النبوية التي لم تسر على منهجية واحدة، واختلفت أساليبها من مؤلف وآخر[3].

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز تعلق المغاربة بالجناب النبوي الشريف، وارتباطهم العظيم بالبقاع الطاهرة المقدسة، وعلى رأسها مسجد النبي ﷺ، والقدس الشريف ثالث الحرمين ومسرى رسول الله ﷺ، ومن مظاهر ذلك ما تحفظه المكتبة الإسلامية من أنواع المؤلفات المغربية التي تعنى بالسيرة النبوية والشمائل المحمدية.

فلقد كان إسهام المغاربة في خدمة السنة النبوية متميزا، وتعلقهم به كبيرا، وكانت قراءة السيرة ومدارستها في المساجد والمدارس العتيقة والزوايا مقررة ومتواصلة، وروايتها بالأسانيد متصلة، وهذا كله نابع من تعلق المغاربة وحبهم العميق لكل ما له صلة برسول الله ﷺ، ومنبثق من حرصهم الشديد على تمثل أخلاقه والاقتداء به.

(1) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: 1/ 45 فما فوقها.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 14/ 233.

(3) قبس من المخطوطات العربية لمحمد المنوني: ص: 833.

ولأجل هذه الغاية، آثرت العمل على مؤلف يحمل بين طياته علامات التفوق والنبوغ والإبداع المغربي في هذا الفن، فهو يبرز العشق الذي يحمله المغاربة عامتهم وخاصتهم للرسول ﷺ، واحتفاءهم بسيرته ومراحل حياته وتفاصيلها، وتكريسهم لأوقاتهم في الذكر والصلاة عليه، وإحياءهم لحفلات المولد النبوي التي بلغوا فيها المنتهى حتى شاع أمرهم في الآفاق وانتشر.

ومن خلال تتبع هذه التحفة الفنية الموسومة بذخيرة المحتاج في التوسل بصاحب اللواء والتاج، يمكن الكشف عن الإبداع الصوفي المغربي في المزج بين فن التأليف في أنواع الصلوات على النبي ﷺ والتوسل به، وبين سرد أحداث السيرة النبوية وذكر الشمائل الأحمدية المحمدية في قالب بديع ونظم فريد.

ولتحقيق هذه الغاية، سنعالج هذه الإشكالية في ثلاثة محاور، نعرف من خلال المحور الأول بالشيخ سيدي محمد المعطى بن الصالح الشرقي، ونبرز تكوينه العلمي والأدبي في مختلف العلوم والفنون، أما المحور الثاني فيتطرق إلى كتاب الذخيرة ويبرز مكانته وأهميته، ويسعى المحور الثالث إلى إظهار معالم النبوغ والإبداع من خلال أمثلة مختارة من سيرته ﷺ وذكر بعض من أخلاقه وشمائله.

ويعد الشيخ سيدي محمد المعطى بن صالح الشرقي واحدا من الذين أبدعوا في الجمع بين الصلاة على النبي ﷺ، وسرد أحداث السيرة النبوية، وذكر أخلاقه وشمائله المصطفوية. ويعجب الأستاذ عبد الهادي التازي رحمه الله كيف أن أحدا من الذين كتبوا عن السيرة النبوية، لم ينتبه إلى الشيخ محمد المعطى وإلى ذخيرته، فقد "كتب السيرة بطريقة غير الطريقة التي سلكها معاصروه، بل ومن سبق معاصريه أيضا"[1].

أولا: الشيخ المُعطَى مدارك العلم وملامح الإصلاح والإبداع.

وقع في الذخيرة سياق اسمه ونسبه على هذا النحو: "أبو عبد الله الشيخ المعطى بن الشيخ الكامل سيدي محمد المدعو بالصالح"، وحلاه معاصره محمد التاودي بن سودة[2] "بالولي الصالح ذو الفخر

(1) من أحد رجالات المغرب الشيخ محمد المعطى بن الصالح الشرقي من خلال مخطوطته حول القدس الشريف. مجلة التاريخ العربي عدد: 53السنة: 2010م.

(2) أبو عبد الله محمد التاودي نسبة إلى تاؤدة بضم الواو المعروف بابن سودة المري الأندلسي أصلا، الفاسي منشأ ودارا توفي سنة 1209هـ. [سلوة الأنفاس:1/ 118]

الشهير والقدر الخطير العمري الأصل التادلي الدار"[1]، ويذكره القادري ويثني عليه فيقول: "الشيخ الولي الأديب، البارع النجيب، الصالح الشهير، المستغرق أيامه في مدح الرسول، والبالغ من رضاه غاية الوصول، أبو المواهب وأبو البركات"[2].

ويوصف مؤلفنا بمجدد الزاوية الشرقاوية التي تنسب إلى جده، أما والده الشيخ صالح الشرقاوي فقد حظي بمكانة كبيرة عند علماء عصره حتى خاطبه الإفراني[3] بقوله: "نحن خلجانكم وأنتم البحار"[4].

وينقل عنه تلميذه الحضيكي[5] أنه "كان آية من آيات الله في حفظ السيرة النبوية، والتنقيب عن أحوال الصحابة والسلف الصالح، يوشح مجالسه بذلك"[6]. ومن أشياخه والده الشيخ الكبير العالم الشهير سيدنا الصالح، وشيخ الطائفة العارف العلامة ناصر الدين الدرعي، والعارف بالله سيدي محمد بن سعيد الطرابلسي[7].

وتفيدنا المصادر التي عنيت بالترجمة له وعلى رأسها "يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطى" لتلميذه محمد بن عبد الكريم العبدوني، أن الشيخ محمد المعطى بن الصالح الشرقي كان متضلعا

---

(1) الفهرسة الكبرى والصغرى لمحمد التاودي بن سودة: 133.

(2) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني: 4/ 174.

(3) محمَّد الصُّغَيِّر بن محمد بن عبد الله بن علي الأفراني الأصل (اليفرني) المراكشي الموطن: مؤرخ أديب، من رجال الدولة في سلطنة المولى إسماعيل. ولد بمراكش وأخذ عن علمائها وعلماء فاس. وصنف كتبا، منها (صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر) و(نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي أي الحادي عشر، و (المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل ط) و (فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث). الأعلام للزركلي: 7/ 67.

(4) انظر ترجمته وافية مع معلومات عن ذخيرته في كتاب معجم طبقات المؤلفين على عهد الدولة العلوية لعبد الرحمن بن زيدان: 2/ 364. وكذلك موسوعة أعلام المغرب لمحمد حجي: ص 2235 و2390.

(5) محمد بن أحمد الحضيكي السوسي صاعقة سوس وعلامته. الشيخ الإمام المشارك الهمام. كانت ولادته عام ثمانية عشر ومائة وألف، له عدة تآليف، منها حاشية على صحيح البخاري؛ واختصار الإصابة؛ وشرح على الرسالة؛ ورحلة إلى الحجاز؛ وأجوبة فقهية؛ وتاريخ سماه بالطبقات؛ وشرح الطرفة في مصطلح الحديث؛ وشرح الرسالة؛ وحاشية على الشفاء؛ وحاشية على سيرة الكلاعي؛ وفهرسة، إلى غير ذلك من التآليف. توفي ليلة السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة 1189هـ.[إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع لابن سودة: 1/ 39، والأعلام للزركلي: 6/ 15].

(6) فهرس الفهارس للكتاني: 1/ 352.

(7) طبقات الحضيكي: 2/ 348.

في جميع العلوم تقريبا من نحو وعقائد وفقه، وقد قرأ هذه العلوم على أبيه محمد الصالح، وعمه محمد المعطي، وعبد القادر بن أبي القاسم الزيزي، أما الأصول والبيان والمنطق فقد أخذها عن ابن زاكور الفاسي، وأجازه أبو العافية الصومعي في الحديث والتفسير والسير، وأخذ الطب عن عبد الله بن شقرون الفاسي[1].

وبالإضافة إلى التحصيل العلمي، فقد كان له عناية بجمع الكتب ومطالعتها، وإقبال على استفادة العلوم، "وحصلت بيده خزائن من الكتب لكونه كان مليا من متاع الدنيا"[2]. مما جعل يتبوأ مقاما عظيما بين علماء عصره، له باع في الترسيل، وعارضة في الأدب، وقوة المطالعة، وذوق في إشارة القوم[3]، وعرف عنه محبة النبي ﷺ والاشتغال بالصلاة عليه حتى قيل فيه أنه امتزجت محبة النبي ﷺ بلحمه وعظمه وشعره وعروقه ودمه[4].

وبفضل نسبه الشريف ومكانته العلمية، تحصل للرجل مكانة اجتماعية مرموقة، تتجلى في كثرة الأتباع، وصيته الشائع في جبال تادلا ونواحيها، مما مكنه من القيام بأدوار اجتماعية رائدة، حيث كان يقوم أثناء بعض الظروف العصيبة بمساعيه الحميدة للمصالحة بين القبائل، وكان ينفق من ماله أيام الشدائد والأزمات والمجاعات لإسعاف المحتاجين والفقراء.

ثانيا: كتاب الذخيرة سيرة وصلاة.

تجمع المصادر التي بين أيدينا إلى أن شهرة المعطى الشرقي ترجع قبل كل شيء إلى كتابه الضخم في الصلاة على النبي ﷺ [5]، وهو كتاب جليل عجيب في النظم بديع في الترتيب، لا نظير له في بابه[6].

ويذكرنا الشيخ المعطى بدوافعه لتأليف ذخيرته فيقول: "فإني لما رأيت ما في الصلاة على النبي ﷺ ، من الفضائل والخيرات والبشائر والأنوار والشوارق ولوائح المسرات، وما أعد الله لأهلها من أسنى المراتب وأعلى الدرجات...ووقفت على ما في كتب القوم من غرر الصلوات ونفائس التحيات...حركني حامل الحب الذي لا يرد وارده، وحدثني عامل الشوق الذي لا يكتم شاهده، أن

(1) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر: 288/ 289.

(2) نشر المثاني للقادري: 4/ 174.

(3) نفسه.

(4) فهرس الفهارس للكتاني: 2/ 780.

(5) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر ص: 289.

(6) طبقات الحظيكي: 2/ 384.

أدلي دلوي بين المحبين المادحين، وأمد طرفي بين الطالبين الراغبين وأجري طرفي بين القوم السابقين العاشقين[1].

وينقل ابن سودة أنه شرع فيه وهو بفاس عند ضريح سيدي موسى الراعي خارج باب الجيسة، أعجبته صلاة حضرت له فجعل يبني عليها، فلم يزل على ذلك إلى أن بلغت عند وفاته نيفا وسبعين سفرا في القالب الكبير[2]، ولقد لقي الكتاب عناية بالغة، وكان من المقررات التي تدرس بالقرويين، يقول القادري: "وهو الآن يسرد منه نحو نصف ورقة بعد صلاة العصر بمسجد القرويين بفاس الإدريسية، فسمعت منه وحضرته أياما، وضمنه أنواعا كثيرة جدا من الصلاة على النبي ﷺ"[3].

وعليه فإن كتاب الذخيرة في السيرة النبوية من أعظم الكتب التي فاق بها المغاربة غيرهم، لأنها في نيف وسبعين مجلداً من القالب الكبير كما ذكر الشيخ ابن سودة في فهرسته، بإنشاء بديع وبلاغة فائقة يفرغ السيرة النبوية في قالب صيغة صلاة، وكل مجلد أو أكثر من هذه المجلدات في موضوع من مواضيع السيرة، فله في المعراج سبع مجلدات، وفي الحج والزيارة وأماكنهما مجلدات سبعة، وفي الشمائل النبوية سبعة أسفار أيضاً وسفر في المولد، وسفر في الوفاة النبوية، وسفر في النعال النبوية، وسفر في الأسماء النبوية، وسفر في الأعضاء النبوية، وهكذا[4].

وهذا ما يؤكده مؤلفنا متحدثا عن كتابه بقوله: "لما تفضل علي بنور فتحه المبين، وكان لي في جمع هذا التأليف خير مرشد ومعين، جلت بعين فكري في ميدان قصرت أرباب المعاني عن فهم محامله، وخضت بنور عقلي بحرا وقفت فحول المادحين بساحله، فاستخرجت هذه اليواقيت اللطيفة التي لم يوجد لها نظير في الشكل والمثال، واللآلئ المنيفة التي لم يضاهها أحد من أهل اللطائف والرقائق، ولم ينسج لها على منوال...فجاءت بحمد الله بديعة الأسلوب، كفيلة بنيل المطلوب، تنفتح عند مناولتها أقفال القلوب، وتنكشف بفضلها أزمة الشدائد والكروب"[5].

وقد اشتهر هذا الكتاب وانتشر فقل أن تخلو خزانة بالمشرق والمغرب من جزء منه أو أجزاء...وقد قرضه ومدحه أعلام بالحجاز ومصر وتونس وغيرها[6]. وقد تحقق بذلك رجاؤه حيث

---

(1) مخطوط الخزانة الصبيحية الذخيرة ورقة 1 2.

(2) الفهرسة الكبرى والصغرى لابن سودة ص: 133.

(3) نشر المثاني ص: 174.

(4) انظر فهرس الفهارس:2/ 780.

(5) مخطوط الخزانة الصبيحية ورقة 2.

(6) انظر فهرس الفهارس:2/ 780، قبس من المخطوطات للمنوني ص: 537.

أراد لذخيرته "أن يكون أهل المشرق يسعون إلى ضوء نارها المشرق، وأهل المغرب يفخرون ببديع صنعها المغرب، وأهل اليمن يطلبون بها دواء المنن، وأهل العراق يتعلمون منها مكارم الأخلاق، وأهل نجد يبلغون بها مراتب المجد، وأهل تهامة يدركون بها درجة الاستقامة، وأهل مصر والشام ينالون بها غاية القصد والمقام"[1].

ثالثا: مظاهر السبق وملامح الإبداع.

مظاهر السبق:

يظهر من خلال ما نقلنا من النصوص أننا بإزاء شخصية واعية ومدركة بأهمية الكتاب الذي بصدد تأليفه، فقد أراد مدروسنا أن يبني كتابه بناءا فريدا في بابه، مخالفا لما سار عليه السابقون، فيفرغ سيرة النبي ﷺ في صيغة صلاة، يبتكر أسلوبها، ويضمنها نمطا من أنماط سيرته، فهو يسرد السيرة وفي نفس الوقت يمزجها بالصلاة على النبي ﷺ.

لقد كان له اهتمام بالغ بالسيرة النبوية ولكن بأسلوب مبتدع غير مسبوق، فقبل الشروع في تناول أي حدث يتعلق بالسيرة النبوية أو ذكر خلق من أخلاقه ﷺ، يقرنها ويمزجها بالصلاة عليه، ثم يذكر الحدث في ثناياه كما سنبين لاحقا.

ومن مظاهر السبق والإبداع عند الشيخ المعطى أيضا عنايته بإقامة الرسوم[2]، وتعد الذخيرة المصدر العربي الوحيد الذي عمل على ﷺ، وفي هذا الصدد يذكر الدكتور عبد الهادي التازي أن صاحب الذخيرة خصص جانبا مهما منها للحديث عن القدس الشريف بالرغم من أنه لم يزر القدس، ولكن ولأن الرجل كان مبدعا فإنه لم يقتصر فيه على الكلام المنثور والمنظوم، "ولكنه تجاوزه إلى شيء لم يكن معروفا في عصره، وهذا الشيء هو الأداء بالرسم والصورة، وليس الرسم والصورة فقط، ولكن الرسوم التي كان يصحبها استعمال الألوان التي تتماوج بين الأحمر والأخضر والذهبي اللامح...وهكذا نجد أنفسنا أمام لوحات فنية رائعة"[3].

(1) مخطوط الخزانة الصبيحية ورقة 2.

(2) نشر المثاني للقادري: 4/ 174.

(3) عبد الهادي التازي: من أحد رجالات المغرب: الشيخ محمد المْعطى بن الصالح الشرقي من خلال مخطوطته حول القدس الشريف. مجلة التاريخ العربي. عدد: 53، 2010م.

ملامح الإبداع:

من معالم إبداع الشيخ محمد المعطى الشرقي في ذخيرته كما ذكرنا سابقا قدرته الفائقة على تصوير أحداث السيرة النبوية ووصفها وصفا دقيقا، كما أنه أفرغها في قالب بديع من أنواع الصلوات المحمدية، مع ما تميز به من أسلوب بديع وقوة في الترسيل، فجاءت أحداث السيرة وذكر شمائله ومحامده ﷺ في قالب بديع لم يسبق إليه، وهذه نماذج مختصرة، قدمتها لعلها تفي بالمطلوب وتقرب بعضا من معالم النبوغ.

من دلائل نبوته ﷺ :

تناقلت كتب السير والتراجم والتاريخ عددا من الأخبار والقصص والأحداث التي رافقت مولد الرسول الأكرم، أو ما يصطلح عليه بدلائل النبوة، وقد ورد فيها خبر ارتجاس إيوان كسرى وسقوط شرفاته، وما أصاب عظيمهم من غم وهم في تلك الليلة العظيمة، مما جعل كسرى يستدعي كبار القوم وحاشيته، "فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران، وكتاب من صاحب إيليا أن بحيرة ساوة غاضت، وكتاب من صاحب الشام أن وادي سماوة انقطع، وكتاب من صاحب طبرية أن الماء لم يجر في بحيرة طبرية، فازداد غما إلى غمه، فأخبرهم بما رأى وما هاله"(1).

ولعل هذه الأخبار وغيرها من البشائر التي سبقت مولد النبي المختار، قد صاغها المؤلف في قالب من الأدعية والصلوات، تماشيا مع الوظائف الصوفية التي كانت مداوما عليها، فجاءت العبارات متكاملة في أسلوب يغلب عليه طابع الصلوات والأدعية.

يقول في الذخيرة: **اللهم صل وسلم على سيدنا محمد** وعلى آل سيدنا محمد طالع اليمن والأمان، وعيد الفرح والسرور والتهان، والذي لما أردتَ أن تلحقه في بطن أمه آمنة الجليلة القدر والشان، أمرت تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس، ونادى مناد في السماوات والأرض ألا إن النور المخزون المكنون الذي يكون منه هذا النبي الهادي، في هذه الليلة يستقر في بطن أمه، فلما استقر في بطن أمه آمنة أمنت به من المخاوف الكامنة، فظهر عند ذلك صفاء نورها، وتم دوام فرحها وسرورها، فانطوت الأحشاء على جنينها، وسطع نوره ﷺ في جبينها، فأول شهر من شهور حملها تزلزل قصر كسرى، وفي الثاني امتلأت الأكوان بالبشرى، وفي الثالث غاضت بحيرة ساوة، وفي الرابع انقطع وادي سماوة، وفي الخامس وقعت بحيرة طبرية، وفي السادس مات أبوه عبد الله بالأسرار الخفية، وفي السابع خمدت

(1) الكوكب الأنور على عقد الجوهر للبرزنجي ص: 196.

النيران، وفي الثامن ذل كسرى وهان، وفي التاسع سقط عن رأس كسرى التاج وعظم كربه وهاج، فسأل عن ذلك الكهان والرهبان، فقيل له: لقد آن مولد سيد آدم وعدنان، وهو النبي المرسل في آخر الزمان، المبعوث بالدليل والبرهان، المنعوت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، الذي يظهر دينه على سائر الأديان.

في إسرائه ومعراجه ﷺ:

يبدأ المؤلف حديثه عن قصة الإسراء والمعراج في أسلوبه المتميز -التصلية- بذكر المناقب المحمدية، فيثني على النبي ﷺ بما شاء من أوصاف ونعوت الجلال والتوقير، قبل سرد تفاصيل هذا الحدث البارز، كما جاء في أحاديث الباب ونصوص كتب السيرة والمغازي.

ويضفي المؤلف على سيرته نوعا من الجمالية الأسلوبية عند ذكر الحوار بين النبي ﷺ وبين جبريل وغير من الملائكة، فينقل على لسان جبريل ما تحرك به لسانه من صفات التعظيم والتبجيل لخير الأنام.

يقول في الذخيرة:

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد عنصر السيادة، الشريف الأصل والمبنى، وقطب المجادة، النوراني الحس والمعنى، الذي لما أراد مولاه أن يعرج به إلى المقام الأسنى، ويخصه بالمكالمة والمحادثة في مقام قاب قوسين أو أدنى، أرسل إليه أجل كرمائه، ورؤساء أصفيائه وأحبائه، فوجده نائما عند الحطيم على سرير ملكه الأهنا، وحيوه بأفضل التحيات والكلمات الحسنى، وناداه جبريل: قم أيها الحبيب المكين، والرسول الصادق الأمين، والمحبوب المتوج بتاج الإخلاص واليقين، لترى ما خصك به مولاك...وشق صدره الشريف المطهر، وغسل قلبه النقي المنور، وأفرغ فيه حكمة وإيمانا، وعلما وحلما وإحسانا، وأطبق عليه بخاتم النبوة الأزهر...ثم أركبوه على البراق، وقد خطف الأبصار نوره البراق، فصار يخترق السبع الطباق، وبدر كماله يتزايد في الضياء والإشراق، حتى وصل إلى سدرة المنتهى، فقال جبريل: هذا غاية ما إليه علمي انتهى...ويقول في موضع آخر:

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد خير من رقى على معراج الدنو واستوى، وأكرم من اشتمل على جميع الفضائل والفواضل واحتوى، الذي لما انتهى في مسراه إلى مقام تقصر عن إدراكه فهوم من حدث وروى، وتعجز عن التعبير عنه إشارة من نشر دواوين أسراره الملكوتية وطوى، حتى وقد بلغ من رضا مولاه ما قصد ونوى، وسقاه من فيض مدده اللاهوتي حتى تملا وارتوى، وأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وفرض على أمته الصلوات، فمر على موسى

فأخبره بمقدار التكليف، فقال له: عد إلى ربك واسأله التخفيف، وما زال موسى يرده حتى أبقى خمسا، فقر بذلك عينا، وطاب نفسا، وانعقد القضاء بها وانبرم، ومضى الحكم وجف القلم.

ويظهر كذلك عناية المؤلف بأسلوب السجع في غير تكلف، فيصوغ قصة تصديق أبي بكر لحادث الإسراء والمعراج، بما وافق أسلوبه الذي اعتمده في الكتابة، بدءا بالصلاة على النبي الأكرم، قبل أن يخوض في ثنايا الحدث المؤرخ، في أسلوب حواري شيق بديع.

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد زهر رياض المحبة الأنيق، وعنصر الشرف الباذخ والنسب العريق، الذي لما رجع من مسراه أصبح يحدث قريشا وكلهم كذبوا وضلوا عن الطريق، فسعى بعضهم إلى صاحبه ورفيقه في الغار أبي بكر الصديق، فقال له بلسان استهزاء: صاحبك يزعم أن أسري به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس العتيق، فقال له: إن كان قال ذلك فقد صدق وأخبر بما يناسب ويليق.

من بعض شمائله وأخلاقه ﷺ:

أما ما تعلق بشمائله المحمدية وأخلاقه المصطفوية، فسار فيها على نفس النهج، فبعد الصلاة والسلام يسرد المؤلف ألفاظ الحديث بتمامه، أو يتصرف في روايته. كما سيظهر من خلال هذه الأمثلة:

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد من مص ثدي الوحي ورضعه، وقمع دين الكفر وردعه، الذي أتي بإناء فيه عسل ولبن، فأبى أن يشربه وقال: "شربتان في شربة، وإدامان في إناء واحد"، ثم قال: "لا أحرمه، لكن أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا، وأحب التواضع لله ومن تواضع لله رفعه"(1).

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد خير من شرفه الله وفضله، وطيب للشاربين سلسبيله وسهله، الذي كان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه، وتعجبا مما تحدثوا به، كريما ضحك حتى بدت نواجده، ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة عظة، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء وتوقيرا له.

---

(1) حديث ضعيف قال العراقي: رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله شربتان في شربة الخ وسنده ضعيف اهـ. [تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي: 3/ 1442، كنز العمال في السنن والأقوال للمتقي الهندي: رقم 6350، 1/ 241، السلسلة الضعيفة للألباني: رقم 4875، 10/ 485].

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد سيد كل راكع وساجد، وإمام كل ورع وزاهد، الذي خرج إلى السوق فجاء من وراء رجل اسمه زاهر وكان يحبه، فوضع يديه على عينيه، وما كان يعرف أنه رسول الله ﷺ حتى قال من يشتري العبد، فجعل يمسح ظهره برسول الله ﷺ، إذا تجدني كاسدا يا رسول الله، فقال له ﷺ: لكنك عند الله لست بكاسد[1].

خاتمة واستنتاجات:

من خلال تتبع تضاعيف هذه الورقة يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

عناية المغاربة بالسيرة النبوية نظما ونثرا، تأليفا ودراسة وتعليما: فإسهام المغاربة في خدمة السنة النبوية متميز، وتعلقهم به كبير، وكانت قراءة السيرة ومدارستها في المساجد والمدارس العتيقة والزوايا مقررة ومتواصلة، وروايتها بالأسانيد متصلة، وهذا كله نابع من تعلق المغاربة وحبهم العميق لكل ما له صلة برسول الله ﷺ.

إبداع المتصوفة المغاربة في فن السيرة النبوية من خلال مؤلفات ذاع صيتها بين الأنام وعلى رأسها الشفا للقاضي عياض، والروض الأنف للإمام السهيلي.

تعتبر ذخيرة المحتاج موسوعة علمية جمعت بين فني السيرة والصلاة على النبي ﷺ.

من مظاهر الإبداع في الذخيرة ما احتوته من رسوم أبانت عن سبق وتفوق ونبوغ علما بأن هذا الأمر لم يسبق إليه المؤلف.

كتاب الذخيرة من أكبر المؤلفات في السيرة النبوية إذ بلغت أجزائه ما يناهز الثمانين جزءا. وهو كتاب جليل عجيب في النظم بديع في الترتيب، لا نظير له في بابه.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الأخضر محمد: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء طبعة 1977م.

(1) أخرجه أحمد في مسنده رقم 12648 باب مسند أنس بن مالك، والبزار في مسنده رقم 6922: 13/ 319، والبيهقي في الآداب رقم 329 باب المزاح المباح: 135.

البزار: المسند، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، بدون طبعة.
البيهقي: الآداب، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى: 1408 هـ – 1988 م
التاودي بن سودة: الفهرسة الكبرى والصغرى، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية بيروت 2002م.
حالي حسن: الشروح المغربية على كتاب الشمائل المحمدية، منشورات الرابطة المحمدية دار أبي رقراق الرباط 2012م.
الحضيكي: طبقات الحطيكي، تحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 2006م.
ابن حنبل: المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى:2001 م
الزركلي: الأعلام دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر: 2002 م.
ابن سودة: إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تحقيق: محمد حجي دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى: 1997م.
العراقي: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، دار ابن حزم بيروت الطبعة الأولى: 1426 هـ – 2005 م
القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفيحاء عمان، الطبعة الثانية: 1407هـ.
القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، نشر وتوزيع مكتبة الطالب الرباط 1986م.
القرطبي: الجامع لأحكام القرآن تحقيق: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ – 1964 م
الكتاني جعفر بن إدريس: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، دار الثقافة الدار البيضاء، بدون طبعة.
المتقي الهندي: كنز العمال في السنن والأقوال، تحقيق: بكري حياني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة: 1981م.
المنوني محمد: قبس من المخطوطات العربية، دار الغرب الإسلامي بيروت 1999م.
مجلة دعوة الحق صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، العدد: 240 نونبر 1986م.